كيف نقرأ؟
(القراءة النقدية)

أ.د. محمود توفيق محمد سعد (*)

فيما مضى من القول كانت كلمات عجلى في بيان مفهوم القراءة وأهميتها في حياة الناس، وفي بيان الضرب الأول من الأضرب الأربعة للقراءة النافعة (القراءة العبادية).

وأستفتح هنا - إن شاء الله تعالى - قولًا في الضرب الثاني من هذه الأضرب الأربعة: «القراءة النقدية».

مفهوم القراءة النقدية: يحسب بعض الناشئة في طلب العلم أن «النقد» عمل منحصر في بيان مثالب المنقود، وهذا نظرٌ واهٍ.

القراءة النقدية رؤية فؤادية في المقروء من جهات:

من حيث وجوده نصًّا.

ومن حيث سياق إيجاده.

ومن حيث مغزاه وأدواته الفاعلة المحققة به المغزى.

ومن حيث سياق استثماره.

ومن حيث منهج الاستثمار.

كل ذلك يشكل حقيقة «القراءة النقدية» لأي عمل علمي أو إبداعي.

فـ «النقد» عمل مركب من مجموع أعمال متلاحظة، متآخذة، متراكبة، يؤسس بعضها على بعض:

من القراءة النقدية ما هو عمل توثيقي تأصيلي، كالذي تراه في صنيع الأستاذ/ محمود محمد شاكر - رحمه الله تعالى - في تحقيق نسبة قصيدة: «إن بالشعب الذي دون سلع ...» في كتابه الفريد في بابه: «نمط صعب ونمط مخيف»: وقرر أنها في رثاء «تأبط شرًّا» صنعة ابن أخته، وليست صنعة «تأبط شرًّا»، كما وهمت ثلة، وكذلك صنيع أ.د محمود علي مكي في تحقيق نسب «الرسالة العذراء» إلى أبي اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني (ت: ٢٩٨هـ) بدلًا من نسبتها إلى أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن المدبر (ت: ٢٧٩ هـ) في مجلة المجمع العلمي الجزء (٦٢) عام (١٤٠٨هـ) ومثله صنيع الدكتور زكريا سعيد - رحمه الله تعالى - في تحقيق نسبة الكتاب المعروف في طلاب العلم باسم «الفوائد المشوق إلى

(*) عضو هيئة كبار العلماء.





علوم القرآن وعلم البيان» المنسوب إلى ابن القيم (ت: ٧٥١هـ) فحقق، وحرر نسبته إلى ابن النقيب: أبي عبد الله الجمال محمد بن سليمان البلخي (ت: ٦٩٨هـ)، وأكد أنه «مقدمة تفسيره» وهكذا.

مثل هذا يندرج في «القراءة النقدية»، ولا تحسبن أن هذا عمل يسير. هو عمل ثقيل لا يقوم به إلا الأعيان.

ومن «القراءة النقدية» ضبط النص، وتحريره، واستقراء رواياته، وما بينها من اختلاف واتفاق، واجتماع وافتراق، وبيان مراتب هذه الروايات من الصحة والوضوح، والتفصيل...

ومن «القراءة النقدية» تبيين مرجعيات النص العلمي أو الإبداعي، وبيان علاقته بالنصوص الحاضرة فيه على تنوع مستويات الحضور وصوره، سواء ما كان منها من صنيع الناصّ «المؤلف» أو «المبدع» أو صنيع غيره ممن سبقه أو عاصره.

ومن «القراءة النقدية» تحليل النص علميًّا كان أو إبداعيًّا، وتأويله، وتعليله.

وهذا الضرب هو مناط العناية هنا، فما سبقت الإشارة إليه من ضروب «القراءة النقدية» إنما هو كالتوطئة والتهيئة لهذا الضرب من «القراءة النقدية».

وفي هذا الضرب تظهر مراتب التفاضل بين القراء، ولا سيما إذا ما كان المقروء نصًّا ثريًّا سريًّا، لا ينضب عطاؤه، كلما زدته تبصرًا زادك عطاء، وكلما اتسعت رؤيتك الفؤادية فيه كانت لك منه ما لم يكن لغيرك منه، وكلما كثرت عدتك، وصحت مهارتك، وامتدت خبرتك كنت المفتتحة له الأبواب، تدخل من أيها شئت.

النصوص النبيلة إنما تعطيك من أسرارها على قدر وعائك (فؤادك) اتساعًا وطهرًا من الشبهات والشهوات وسائر المعيقات، وعلى قدر عدتك ومهاراتك وخبراتك.

ومما هو جدير باستحضاره أن «القراءة النقدية» كمثل كل عمل بشري ليست بريئة، لما أن «الذاتية» من مقوماتها، وكل ما هو بشري ليس بريئًا؛ لحضور «الذاتية» شريكًا لـ «الموضوعية» فيها، ومن هذه الذاتية ما هو رشيد، فيكون عضيدًا «للموضوعي»، ومنها ما ليس كذلك. والناس في هذا جد متفاوتين.

(أنواع المقروء وأثره في منهج القراءة) (رؤية جملية):

المقروء ضربان كليان:

الأول: بيان كوني.

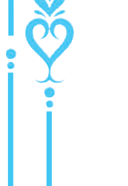
والآخر: بيان لساني.

الأول هو الآيات الكونية التي هي صنع الله - سبحانه وبحمده - الذي أتقن كل شيء خلقه وأحسنه.

والآخر: بيان لساني (منطوق أو مرقوم)، وهذا البيان اللساني شريجان:

الشريج الأول: بيان لا يؤسس تعليقًا على بيان سابق، وهو ضربان:

(أ) بيان وحي قرآنًا وسنة. (ب) بيان إبداع علمًا أو شعرًا أو نثرًا أدبيًّا.



الشريح الآخر: بيان مؤسس تعليقًا على بيان سابق، سواء كان البيان السابق بيانًا كونيًّا من صنع الله تعالى، أو بيانًا لسانيًّا بنوعيه: «الوحي» و«الإبداع البشري».

وهذا البيان المؤسس على بيان سابق نوعان:

الأول: هو نتاج قراءة لقراءة سابقة للبيان الكوني سواء كان هذا البيان علميًّا أو إيمانيًّا أو فلسفيًّا.

الآخر: هو نتاج قراءة لقراءة سابقة لبيان وحي: قرآنًا وسنة، أو لبيان إبداع علمي، أو بيان إبداع أدبي شعرًا ونثرًا أدبيًّا.

هذا التفريع ليس ثرثرة جوفاء أو تفيهقًا - معاذ الله تعالى - هو ضرورة منهجية لنعرف موقع أقدامنا، ونحن نمارس عبادة القراءة - نعم، عبادة القراءة، وأنعم بها عبادة! -، ذلك أن لكل نوع من هذه المقروءات منهج قراءة، المنهج والأدوات والمهارات مرهونة بحقيقة ما يمارس فيها الفعل: (القراءة) وبطبيعتها، وبما جعل له المقروء.

من لم يكن بصيرًا بحقيقة ما يقرأ وباستحقاقاته عليه، فإنه لا محالة لا يكون قارئًا متعبدًا بقراءته، ولو قرأ ألف سفر.

حقًّا إن هنالك كليات حاضرة في منهج قراءة كل مقروء من أنها الأصول الكلية التي لا تكون بدونها جمعاء، بيد أن ثم ما يميز منهج قراءة كل نوع من المقروءات، وهي التي تعين على استبصار خصائص كل فرع من فروع منهاج القراءة النقدية التحليلية.

في بيان منهج القراءة النقدية التحليلية نجعل المقروء هنا ضربين:

الأول: نص علمي مؤسس على بيان الوحي، ككتب التفسير وشروح السنة أو نص علمي مؤسس على بيان الإبداع البشري، ككتب نقد الشعر أو النثر الأدبي، من نحو كتاب: «شرح الحماسة» للمرزوقي، أو شروح ديوان «المتنبي».

والآخر: نص علمي مؤسس على بيان علمي، كالكتب التي تقوم لشرح مذاهب العلماء وآرائهم في قضايا ومسائل علمية أو نقدها، ككتب شروح «الكتاب» لسيبويه (ت: ١٨٠هـ) أو شروح «مفتاح العلوم» للسكاكي (ت: ٦٢٦هـ) أو شروح تلخيصه للخطيب القزويني (ت: ٧٣٩هـ).

ومن هذا الباب كتاب شيخنا: «المدخل إلى كتابي عبد القاهر» وما ينشره من مقالاته في «الإعجاز» في مجلة الأزهر.

وقراءة مناهج العلماء الأعيان في قراءة نصوص علمية لسابقين، أو قراءة نصوص إبداعية، إنما يكسب المرء مهارات وخبرات تمكنه أن يسلك بنفسه سبيلاً يليق به، فلا يكون مستنسخًا من آخر، فإن الاستنساخ قبح، ولو كان استنساخ جمال مدهش.

(يتبع إن شاء الله تعالى)